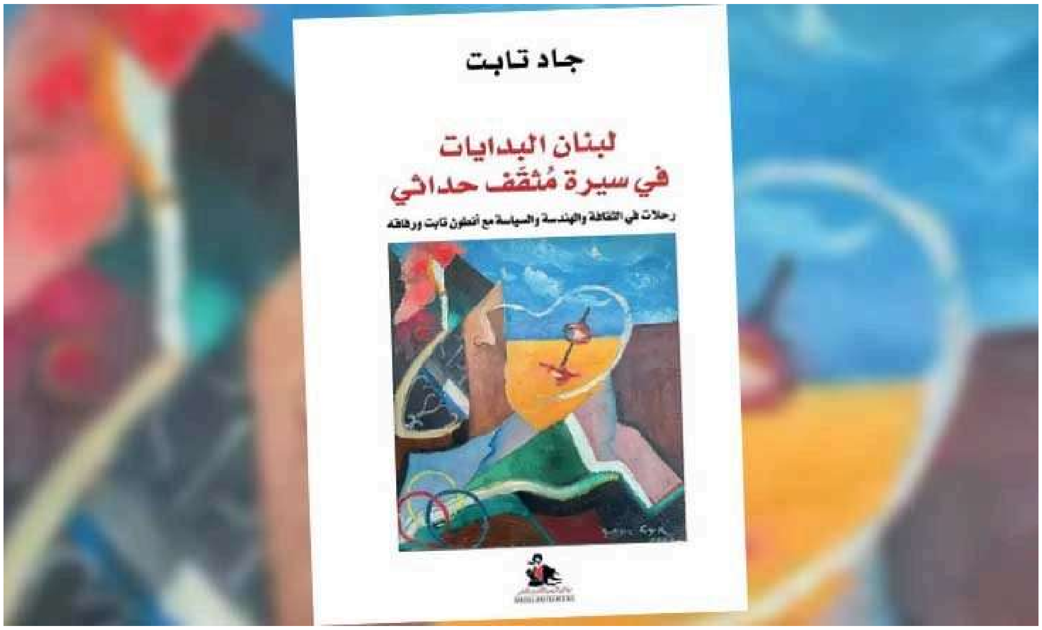
بدايات شبابيّة من سيرة لبنان الحداثي

20 - أغسطس - 2025



للرفاق الثلاثة أنطون تابت وأنطوان موراني ونعمة إدّة، لم يُتح زمن تعلّم طويل، ولا إقامة طويلة في حياة مدنية متقدّمة، حين أعلنوا عن ضيقهم من عِتق القوانين التي تحكم العالم. كانوا رفاق مدرسة إرسالية، آتين من القرى في جبل لبنان، لكن حين صار عليهم أن يختاروا تخصّصهم، رأوا أنهم قليلو الإمام باللغة العربية عدا واحدا منهم هو نعمة إدّة. قبل ذلك، وهم بعد في المدرسة، قاموا بتأسيس جمعية ذات وجهة أدبية أطلقوا عليها اسم «جماعة الفرسان». انضم إليهم إثر ذلك، وإن من فرنسا، الشاعر الشاب جورج شحادة. من أعمارهم المبكّرة، كما من عمر بلدهم لبنان المبكّر أيضا، بدأوا البحث عن طرق تفكير وأساليب كتابة جديدة غير مستعارة من أصل أوروبي سابق، بل مجارية ومرافقة لما يحصل في فرنسا. كانت تلك التجربة قد سبقت الدعوات اللاحقة إلى التجديد، والتي كان قوامها النقل من طريق الترجمة، في أفضل الأحوال. ولم يكن مركز اهتمام هؤلاء الرفاق منصبّا على الأدب وحده، بل كان شاملا لأبواب وفنون أخرى بينها الرسم والنحت والعمارة والمسرح، وقد أسّسوا مقرّا لجمعيتهم في شارع المتنبي في بيروت لم يدم طويلا.

تلك الرغبة في التغيير صاحبت تلك المرحلة التي خرج فيها لبنان من الحكم العثماني إلى الإنتداب الفرنسي، لم تقتصر تلك الثورة على نبذ القديم العثماني، بل تعدّته إلى ما كان قائما في الدولة الفرنسية. إنه انتقال مزدوج، تسريع للتاريخ ما قام به هؤلاء الشبّان. فبدل أن يكتفي محبو الفنّ بمجرّد الإقبال على ممارسته، أعلنوا عن رفضهم لأعمال فنانين بارزين آنذاك مثل داود القرم وحبيب سرور. في الشعر تظهر الحماسة لتلك الثورة في الرسائل التي كان يرسلها جورج شحادة لأنطوان تابت. كان الأول ما يزال في بدايته ملحا على نشر شعره، معربا عن تلك الرغبة بين الإلحاح والاستنكاف.

ومثلما كان سعي الشباب لأنواع مختلفة من الفنون، كان التاريخ الذي كتبه جاد تابت، شاملا أكثر المجالات المؤثرة في ذلك التاريخ. من ذلك تاريخ تأسيس بحمدون وعائلاتها (وهي المكان الذي ولد وعاش فيه أنطون تابت) وبدء تحول المقيمين فيها إلى العمل في إنتاج الحرير وإهمال الزراعة الغذائية، مرورا بفاصل سكة الحديد التي أقيمت لها محطة في بحمدون، عبورا إلى تنازع الإرساليات الفرنسية والبروتستانتية على إقامة المؤسسات التعليمية والرعائية. ولنضف إلى ذلك العمارة وتاريخها ابتداء من بيت الجدّ وصولا إلى المعالم التي بناها أنطون تابت نفسه، ولم ينس ابنه مؤلّف الكتاب إمداد قارئه بفاصل موسع عن المدارس المعمارية في فرنسا، تلك التي كان والده حاضرا في بعضها، ومشاركا في بعضها الآخر.

أعدّد ذلك لأصل إلى أن الكتاب يؤرخ لكل ما كان يتغيّر في ذلك الزمن ويدمجه في سياق كتابي لا أثر فيه للتنافر أو التضارب. وفي المراحل التالية من حياة أنطوان تابت وصحبه سنتدرّج، كقارئين، عبر مراحل تحوّله الفكري والمهني، وكذلك السياسي، وصولا إلى ترؤّس جمعيات حقوق الإنسان والعمل من ثمَّ ضمن نطاق العمل السياسي الشيوعي. وإذ نأتي إلى تذكّر مرحلة سابقة من معايشة أنطون تابت للتيارات الأدبية والفكرية، ومن بينها السريالية والدادائية ثم الوجودية، نجد أن التفوّق في

المجال المهني المعماري لم يستهلك كل مجهود تابت، وهذا ما ينتح لقارئ سيرته أن يلمّ بكل ما جرى في مدار تلك العقود، ابتداء من المستوى الأضيق، الشخصي والبلدي وصولا إلى النزاعات الدولية وحلول الستالينية في الاتحاد السوفييتي وتردّد تابت إزاء قبضة القمع المرافقة لزمن سيطرته.

ورغم ذلك لا يمكن لقارئ الكتاب أن يحصي كل ما جرى التطرّق إليه فيه، الجزء الخاص بتأسيس مجلة «الطريق» وما لازمه من وصف لجماعتها من الكّتاب والنهاية المأساوية لعمر فاخوري يكشف بذاته فاصلا من فصول تاريخنا الأدبي، والأمثلة المشابهة لذلك كثيرة. كونه معماريا، لم أكن أعرف عن أنطون تابت إلا أنه من بنى فندق السان جورج، الذي هو علامة بارزة من عمارة لبنان. مع الكتاب عرفت أن مدرسة الليسيه (ليسيه عبد القادر) هي مما عمّره أيضا، وكذلك مدرسة الحكمة، ومعمل بيرة والتخمير- الماسة، وأبنية أخرى في لبنان والبلدان المحيطة. وهكذا نجد أنفسنا كيف أمكن لرجل لم تمهله الحياة طويلا أن ينجز، وأن يتحقّق له النجاح في هذه الميادين المختلفة المجالات. لم أكن أعلم أنه كان قد حاز جائزة لينين السوفييتية. لكن مع كل ذلك يخرج القارئ من الكتاب غير عارف عن أنطون تابت إلا القليل. أقصد أن نجاحه الكبير لم يترك الكثير لتفاصيل حياته الشخصية. ربما هكذا هي السيرة التي تكتب عن الناجحين والمتفوّقين، ذاك أن أدوارهم الكبيرة لم تترك لهم فرصة لإظهار ذواتهم.

«لبنان البدايات في سيرة مثقّف حداثي» كتاب جاد تابت حول رحلات في الثقافة والهندسة والسياسة مع أنطون تابت ورفاقه صدر عن دار رياض الريّس سنة 2023 في 335 صفحة.

كاتب لبناني

كلمات مفتاحية

حسن داوود

اترك تعليقاً

لن يتم نشر عنوان بريدك الإلكتروني. الحقول الإلزامية مشار إليها بـ *

التعليق *

الاسم *

البريد الإلكتروني *

إرسال التعليق

أرشيف PDF

النسخة المطبوعة

سياسة

صحافة

مقالات

تحقيقات

ثقافة

منوعات

لايف ستايل

اقتصاد

رياضة

وسائط

الأسبوعي